المدرسة الإستشراقية في الجزائر فترة الاحتلال الفرنسي

أ.عبد الرؤوف قرناب

جامعة الجزائر 01، **الجزائر**

الملخص:

يتكلم هذا البحث عن مكون مهم جدا في تاريخ الجزائر الديني والثقافي، حيث يمكن اعتباره المؤثر الرئيسي في العملية الاستعمارية بل هو المسؤول عن الحركة الثقافية بعد اكتماله ونضوجه، هذا الذي ضمناه في هذا البحث هو الكلام عن المدرسة الاستشراقية الفرنسية في الجزائر، واعتبار هذا البحث مهما من خلال تأثيرها على النسيج الاجتماعي الديني والثقافي الجزائري وظهور كل جديدة في هذا المجتمع من خلاله حيث لم تكن موجودة في فترة سابقة لمرحلة الاحتلال، ومن نتائجه ظهور انقسامات في المجتمع الجزائري على أساس القبلية والعروش عملا بقاعدة "فرق تسد"، وقد تطرقت فيه لبيان مفهوم المدرسة الاستشراقية، مع توضيح طريقة النشأة والتطور لأبين في الأخير أهم الشخصيات التي تناولت القضية.

الكلمات المفتاحية: **استشراق، المدرسة الاستشراقية، الاحتلال الفرنسي، الشخصيات الاستشراقية**

***Abstract*:**

This research speaks of a very important component in Algeria's religious and cultural history, where it can be considered the main influence in the colonial process, but it is responsible for the cultural movement after its completion and maturity, which we included in this research is the talk about the French Orientalist school in Algeria, and consider this research important through its impact on the Algerian religious and cultural social fabric and the emergence of new blocks in this community through which did not exist in the pre-occupation period, and one of its consequences is the emergence of divisions in Algerian society on tribal basis , using "Divide and conquer" rule ,and addressed the concept of Orientalism, with the explanation of the method of origin and development to show eventually the most important figures that dealt with the issue.

Keywords*: *Orientalism, Orientalist School, The French Occupation, Orientalist Figures

محاور البحث:

المقدمة

المبحث الأول: تحديد المصطلحات والمفاهيم

المطلب الأول: مفهوم المدرسة والاستشراق في اللغة.

المطلب الثاني: مفهوم المدرسة والاستشراق في الاصطلاح.

المبحث الثاني: نشأة وتطور المدرسة الاستشراقية في الجزائر

المطلب الأول: مراحل النشأة

المطلب الثاني: تطور المدرسة الاستشراقية.

المبحث الثالث: أهم شخصيات وانجازات المدرسة الاستشراقية

المطلب الأول: شخصيات المدرسة الاستشراقية.

المطلب الثاني: انجازات المدرسة الاستشراقية.

مقدمة:

تكلم الباحثون والمؤرخون كثيرا عن تاريخ الجزائر وألفوا في ذلك الكتب الوافرة والأبحاث المتعددة، واختلفت هذه المذكورات باختلاف كتابها ونظرتهم لهذا التاريخ، فمنهم من بحث الجانب السياسي ومنهم من تطرق للجانب الثقافي ومنهم من كتب عن التعليم وآخرون ركزوا جهدهم على الجانب الديني، ولكن من المساحات التي لم تشغل كثيرا وبقيت حبيسة أدراج التاريخ دراسة الجانب الإيديولوجي للتواجد الفرنسي بالجزائر طيلة اثنان وثلاثون سنة ومائة، ونقصد بالجانب الإيديولوجي هنا المنطلقات الفكرية التي استعملتها الإدارة الاستعمارية للتحكم في الفكر الجزائري بل والسعي لتغيير كثير من أنماط حياة السكان الأهالي كما يروق لهذه الإدارة أن تسميهم، وقد نجحت في ذلك لحد ما، خاصة بعد خروجها من الجزائر فلازلنا لحد الساعة وبعد مرور خمسين سنة من انفصالنا عنها نتجرع بقايا هذه الإيديولوجية التي أثرت على الشخصية الجزائرية المسلمة، ومن خلال هذا البحث فإننا نسلط قليلا من الضوء على جانب مهم جدا في دراسة هذه الأفكار حتى تضاف إلى مجموع اللبنات التي تسعى لبعث الموروث الثقافي الذي كان في يوم من الأيام سببا لازدهار الحضارة الإسلامية على هذه الربوع المباركة، كيف لا وقد دخل هذه البلاد عدد لا يحصى من العلماء والفنانين والمفكرين ينهلون من علوم علماء البلد بل ويتفاخرون كونهم درسوا فيها وترعرعوا في مدارسها.

إشكالية البحث:

من خلال ما قدمنا له سلفا فإننا نطرح الإشكالات الآتية:

ما معنى الإستشراق في لغة العرب و اصطلاح العلماء سواء الغربيين أو الشرقيين؟

متى نشأت مدرسة الإستشراق في الجزائر وهل لها امتداد لما وراء البحر، وهل برزت فيها شخصيات معينة أم أنها مدرسة مغمورة؟ وهل حققت هذه المدرسة إنجازات تذكر وتنشر أم أنها حبيسة التاريخ؟ ما هي تأثيرات هذه المدرسة على المجتمع الجزائري بعد الاستقلال؟

المبحث الأول: تحديد المصطلحات والمفاهيم

المطلب الأول: مصطلح المدرسة والاستشراق في اللغة.

الفرع الأول: المدرسة.

إذا ذهبنا نتتبع كتب اللغة والمعاجم التي جاء فيها ذكر مادة درس فإننا نجدها قد ذكرت معاني كثيرة عند اجتماع هذا الجذر ولكن نحن هنا يهمنا المعنى الأقرب لما نحن بصدد البحث عنه والكلام حوله ومن ذلك ما صرح به ابن فارس في معجم مقاييس اللغة فقال: (درس، الدال والراء والسين أصل واحد يدل على خفاء وخفض وعفاء) إلى أن قال (ومن الباب درست القرآن وغيره وذلك أن الدّارس يتتبع ما كان قرأ كالسالك للطريق يتتبعه)[1].

ثم بعد ذلك بينوا اشتقاقات الكلمة ومعانيها وما تختص به ومن أمثلة ذلك ما ذكره الإمام الرازي حيث يقول:(وقيل سمي إدريس عليه السلام لكثرة دراسته كتاب الله تعالى)[2].

ومن هذه المعاني التي ذكرنا ولها ارتباط وثيق بما نبحث فيه أشار وبين ابن منظور رحمه الله في لسان العرب فقال: (والـمُدارس الذي قرأ الكتب ودرسها .... المدراس هو البيت الذي يدرسون فيه ... وأصل الدراسة الرياضة والتعهد للشيء)[3]. فمن خلال هذه الإطلالات إذن نخلص إلى أن المدرسة هي المكان الذي يدرس فيه أي يتمرن ويتعهد فيه القرآن، والقرآن هو أبو العلوم، ويتتبع فيها المعارف. قال الفيروز آبادي: والمِدْراس: (الموضع يقرأ فيه القرآن ومنه مِدْراسُ اليهود ...والمُدرس: الكثير الدرس)[4]

الفرع الثاني: الاستشراق.

أما كلمة استشراق فهي كلمة مركبة وأصلها يعود إلى كلمة شرق قال الرازي: (ش ر ق الشرق المشرق وهو أيضا الشمس يقال طلع الشرق)[5]، وقد أطلق المصطلح وأريد به التوجه إلى

الشرق لأسباب مختلفة، قال ابن منظور:(والتشريق الأخذ في ناحية المشرق يقال شتان بين مشرق ومغرب وشرّقوا اذهبوا إلى الشرق أو أتو الشرق وكل ما طلع من المشرق فقد شرّق)[6]، هذا بخصوص الشطر الأول أما الشطر الثاني من الكلمة وهو الألف والسين والتاء قال في الاحمرار[7]: (باستفعل اطلب تحول طاوع أفعل أو وافق تفعل أو وافق به افتعلا

لفظا، ومنه اللهم إنا نستعينك ونستغفرك أو تقديرا ومنه ثم استخرجها من وعاء أخيه)[8]، ومنه يفهم أن الكلمة إذا اجتمعت فيها الألف والسين والتاء فهي للطلب وهنا المقصود به طلب الشرق، أي طلب كل ما يتعلق بالشرق من علم وثقافة وديانة.

المطلب الثاني: مفهوم المدرسة والاستشراق.

إذا أطلق الباحثون كلمة استشراق سواء الغربيون أو المسلمون فإنهم يقصدون بها الدراسات الغربية للعالم الإسلامي أي دراسة المصادر الإسلامية[9] بأفكار غربية وتحليل هذه المصادر بفهم غربي، وقد تأثر كثير من الباحثين المسلمين بالكتابات الغربية في هذا المجال حتى صاروا ينقلون مفاهيمهم وتعريفاتهم لهذا المصطلح كأنهم يقرون بها دون نقد أو تمحيص، وهاهنا عينة مما ذكرنا لكم فهاهو الأستاذ محمد إبراهيم الفيومي في أحد كتبه ينقل تعريفا غربيا للاستشراق دون أن يذكر فيه نقدا أو ردا فيقول : (يقول بارت: الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، وأقرب شيء إليه إذن أن نفكر في الاسم الذي أطلق عليه: كلمة استشراق مشتقة من كلمة شرق، وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي)[10]، ونحن إذ ننقل هذا التعريف بالتحديد لأنه يتلاءم والاستشراق الفرنسي الذي كان في بداياته يهتم باللغة ثم انتقل للمعارف الأخرى والثقافات المتنوعة، حيث كان يشترط في المستشرق الاطلاع على اللغات الشرقية ابتداء وهي العربية والفارسية والتركية فإن هو أتقنها أتيحت له فرصة النظر في علومهم والبحث في تراثهم، وهذه الفكرة يلخصها أحد المفكرين العظماء في الإسلام بقوله: (الاستشراق: تعبير أطلقه الغربيون على الدراسات المتعلقة بالشرقيين، شعوبهم، وتاريخهم، وأديانهم، ولغاتهم، وأوضاعهم الاجتماعية، وبلادهم، وأرضهم، وحضارتهم، وكل ما يتعلق بهم)[11] ، وقد أطلق على الغربيين الذين يقومون بتلك الدراسات بالمستشرقين (وهم جماعة من المؤرخين والكتاب الأجانب الذين خصصوا جزءا من حياتهم في دراسة وتتبع

المواضيع التراثية والتاريخية والدينية والاجتماعية للشرق)[12]، والمتتبع الممحص للكتب التي تطرقت لقضية الاستشراق وأرادت الإفصاح عن معناه وبيان ماهيته وحقيقته يتأكد أنها تضاربت فيها الآراء والأقوال وهذا ما أشار إليه الأستاذ علي النملة وهو من بين أهم الشخصيات المتخصصة في علم الاستشراق حيث وضح أن هناك خلطا كبيرا في تحديد المعنى الاصطلاحي للاستشراق فيقول :(وليس هناك تحديد واضح لمفهوم الاستشراق، بحيث يمكن معه إطلاق هذا المصطلح على ظاهرة بعينها، لها رجالها وأطرها ونظرياتها ومقوماتها، ومع الإيحاء الذي تمليه الكلمة، إلا أن هناك خلطا واضحا في الأدبيات العربية التي حاولت تحديد المفهوم)[13].

ومن بين التعريفات التي يظهر منها العلمية والمواصفات التي ينبغي توفرها في كل تعريف علمي تعريف الأستاذ عميرة، والسبب في ذلك وصفه الدقيق لخصائص ومكونات هذا العلم أي الاستشراق حيث يقول :(والاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي وكلمة مستشرق بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربي يشتغل بدراسة الشرق كله، أقصاه ووسطه وأدناه، في لغاته وآدابه وحضارته وأديانه)[14]، جمع لنا الأستاذ في هذا التعريف صنفين من المراد تعريفهم فقد عرف الاستشراق كعلم ثم عرف القائم عليه أو المتخصص فيه وهو المستشرق، ثم يبين بمزيد من التفصيل والتخصيص هذا المعنى بقوله :(والمعنى الخاص لمفهوم الاستشراق يعني الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامي في لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته، وحضارته بوجه عام)[15]، ومن بين النقاط كذلك التي ينبغي التنبيه عليها هي كون هذا المشتغل إنما يشتغل بعلوم المسلمين ولا يهمنا بعد ذلك انتماءه الديني والجغرافي، يقول الأستاذ علي النملة :(إلا أنه يهمني أن أقرر هنا أن الاستشراق، في الجانب الذي يخدم البحوث العربية والإسلامية، هو اشتغال غير المسلمين بعلوم المسلمين، بغض النظر عن وجهة المشتغل الجغرافية وانتماءاته الدينية والثقافية والفكرية)[16]،ويحسن بنا هنا كذلك أن نذكر هذا الاستثناء وهو أن الاستشراق وإن عد علماً فهو من جهة أخرى يعتبر إيديولوجية قائمة بذاتها دون أن ننفي عنه العلمية كما يذكره أحد المتخصصين وهو الأستاذ أحمد السايح حيث يقول :(إن الاستشراق في دراسته للإسلام ليس علما بأي مقياس علمي، وإنما هو عبارة عن إيديولوجية خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام، بصرف النظر عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق مرتكزة على أوهام وافتراءات)[17]، وإلى هذا الحد نكون قد حاولنا توضيح أهم

النقاط التي يمكن التطرق إليها في تحديد مفهوم الاستشراق لننتقل إلى شيء آخر وهو المدرسة الاستشراقية الفرنسية.

المبحث الثاني: نشأة وتطور المدرسة الاستشراقية في الجزائر

المطلب الأول: مراحل النشأة

نقدم بين يدي هذا المطلب أولا الحديث عن الاستشراق عموما حيث يختلف الكتّاب في تحديد وقت معين لنشأة الاستشراق فإذا ذهبت تبحث ستجد تضاربا كبيرا في بيان المراحل الأولى لذلك نقول (عن بدايات الاستشراق أنه من الصعب تحديد فترة زمنية معينة، إذ أن البعض يعود إلى أيام الدولة الإسلامية في الأندلس، في حين يعود به آخرون إلى أيام الصليبيين، ولكن من المتفق عليه أن الاستشراق اللاهوتي الرسمي قد بدأ وجوده حين صدور قرار مجمع فيينا الكنسي سنة 1312م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية)[18] وعليه فإنّ من يقول بتاريخ محدد ومعين لبداية الاستشراق قد أبعد النجعة، لأنه وإن ثبت ذلك فإنه لم يكن بالمعنى المعروف في وقتنا الحاضر ولأجل هذا يقول الأستاذ علي النملة :«وليس هناك تحديد واضح ودقيق لنشأة الاستشراق ، بحيث يستطيع الباحث أو المطلع أو المتوسع في هذا المجال أن يحدد تاريخا بعينه تكون فيه المنطلقات الأولى لاهتمام الاستشراق بعلوم الأمم الأخرى وثقافاتها وعقائدها وآدابها وعاداتها وتقاليدها التي كانت تغطي الشرق)[19] ومع هذا فإن هناك من يحدد الفترة الزمنية لنشأة الاستشراق ولكن بنفس التحفظ الذي ذكرناه سلفا وفي هذا المعنى يقول الأستاذ خالد المحجوبي :(إن الاستشراق مصطلح حديث بالمقارنة مع التاريخ الزمني للحركة الاستشراقية ونشأتها ذلك أن أول إطلاقة له يرجع تاريخه إلى أواخر القرن السابع عشر، حيث أطلق على الذين عرفوا بعض اللغات الشرقية: وشهد أواخر القرن الثامن عشر دخوله إلى القاموس الإنجليزي ثم تطور إلى أن دخل القاموس العربي مترجما عن المصطلح الأجنبي: orientalisme بعد استعماله في فرنسا لأول مرة سنة 1799 وبعدها في الأكاديمية الفرنسية سنة 1838)[20]، بل من الباحثين من ينقل لنا تواريخ المؤتمرات المنعقدة في هذا الصدد وهذا النقل جاء بصيغة الجزم وهذا في غالب الأحيان يكون بعيدا جدا عن المنهج العلمي الذي لابد أن تتوفر فيه خاصية عدم الجزم حتى تتأتى المرونة العلمية يقول الأستاذ

مصطفى السباعي عن تاريخ انعقاد أول مؤتمر للاستشراق :(وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس عام 1873، وتتالى عقد المؤتمرات التي تلقى فيها الدراسات عن الشرق وأديانه وحضاراته وماتزال تعقد حتى هذه الأيام)[21]. وفي هذه المقطوعة بيبن لنا الأستاذ زقزوق كيفية انفصال الاستشراق عن الدراسات اللاهوتية، وبعد ذلك أصبح علما قائما بذاته حيث يقول :(وهكذا يمكن القول ....بأن الاستشراق قد تشكل كعلم في القرن التاسع عشر وذلك :" عندما تأكد استعداد الناس للانصراف عن الآراء المسبقة وعن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتي، والاعتراف لعالم الشرق بكيانه الذي تحكمه نظمه الخاصة، وعندما اجتهدوا في نقل صورة موضوعية له ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا "ومن ذلك يتضح انه بتخليص الاستشراق من سيطرة اللاهوت أصبح علما قائما بنفسه هدفه دراسة اللغات الشرقية وآدابها، وبرزت هناك نزعة علمية تتجه إلى دراسة الآداب والعقائد الشرقية لذاتها مستهدفة المعرفة وحدها)[22].

وبعد هذا العرض لكيفية ظهور الاستشراق في العالم الغربي عموما فلا بد بعد ذلك أن نعرج على ظهوره في فرنسا حيث نلاحظ أن الرواد الأوائل للاستشراق كانوا مسؤولين في الجمهورية الفرنسية، حيث استعان بهم القادة السياسيون لبسط الاستعمار والتمكين له وفي هذا الصدد يقول الشرقاوي :(وفي فرنسا كان زعماء المستشرقين مستشارين لوزارة المستعمرات الفرنسية في شؤون شمال إفريقيا فقد شغل المستشرق المعروف دي ساسي منصب المستشار المقيم في وزارة الخارجية الفرنسية، وعندما غزا الفرنسيون الجزائر سنة 1830 كان "دي ساسي" هو الذي ترجم البيان الموجه إلى الشعب الجزائري وكان يستشار بانتظام في جميع المسائل المتعلقة بالشرق من قبل وزيري الخارجية والحربية منذ 1805م)[23]، ولكننا عندما نطالع عددا من الكتب التي تتحدث عن هذه الظاهرة في الجزائر نجدها غنية جدا، وفيها الكثير من المعلومات عن هذه الشخصيات التي قادت الاستشراق ولا بأس أن نبين ذلك بالتدريج، حيث يعتبر "رينيه باسيه" هو الرأس الأعلى والأب الحقيقي لهذه الظاهرة فها هو أحد الأساتذة يصف لنا كيفية تأثيره على الدراسات الاستشراقية في الجزائر:(وفي هذه المدرسة عمل " رينيه باسيه" (1855-1924) منذ العام 1882م أستاذا في بادئ الأمر ومن ثم مديرا لها، وبتنوع ثقافي وبخبرة الناس والبلاد جراء القيام برحلات واسعة النطاق في شمال إفريقيا ونظرية في مجال

اللغة البربرية، سرعان ما انتزع زمام القيادة للعمليات الاستكشافية في المستعمرات الفرنسية انطلاقا من الجزائر، إن هذا العمل الاستكشافي، الذي سجل معظمه في عدد من الدوريات، وجاء نشره بقرار من مؤتمر المستشرقين السادس عشر في مدينة الجزائر في :(البعثة العلمية إلى تونس لعام 1905م)، ضاعف في المقام الأول من معرفة الطلائعيين، لكن علم اللغة والأدب لم يخرجا منها خاليي الوفاض أيضا)[24]وفي هذا النقل نتعرف جيدا على "رينه باسيه" الذي سبق وأن ذكرناه في وقت غير بعيد فيقول :(ويعد رينه باسيه (1855-1924)Basset.Renéفي طليعة محرري المجلة الإفريقية ونشر الآثار الإفريقية ووجد من وقته متسعا للتطواف فقدم إلى تونس منقبا عن الآثار الإسلامية والمخطوطات العربية وترأس مؤتمر المستشرقين في الجزائر (1905)وعرفت له وزارة الخارجية فظله فعينته قنصلا في الجزائر ولكنه آثر التدريس، ولما حولت مدرسة الجزائر إلى كلية (1909) انتخب عميدا وانتخب من مديري دائرة المعرف الإسلامية وعضوا في مجامع علمية كثيرة في: باريس ولشبونة ومدريد وروما ودمشق، فقد جمع التدريس إلى التحرير والتأليف والعضوية العاملة والفخرية في عواصم مختلفة)[25].

المطلب الثاني: تطور المدرسة الاستشراقية.

لقد عكف الباحثون على نقل كل ما يخص هؤلاء المستشرقين الفرنسيين ونحن بدورنا اخترنا جملة من هؤلاء حيث نلخص للقارئ أهم التطورات التي مروا بها فقد أرجعها الأستاذ أبو القاسم سعد الله رحمه الله إلى ثلاثة مراحل فيقول:(وهي ثلاثة على الأقل، المرحلة الأولى من الاحتلال إلى إنشاء المدارس العليا سنة 1879، والثانية من هذا التاريخ إلى الاحتفال المئوي بالاحتلال سنة 1930، والمرحلة الثالثة منذ هذا التاريخ إلى الاستقلال سنة 1962)[26] وفي كل مرحلة كان لهذه المدرسة نشاط معين تقوم به وتتوسع من خلاله، ففي المرحلة الأول تميزت بقوة جهاز الترجمة فيها لحاجتها الماسة لذلك كونها احتلت منطقة لا تعرف ثقافتها وأطرها فكانت تترجم كل ما تجده أمامها من وثائق خاصة ما تعلق بالعادات والتقاليد والقضاء يقول الأستاذ أبو القاسم:(وقد تميزت المرحلة الأولى بجهاز ترجمة قوي على يد العسكريين في معظم الأحيان، وهناك مترجمون إداريون وآخرون قضائيون أيضا وقد نتج عن أعمال هؤلاء وأولئك أكداس من النصوص والعرائض والوثائق، واشتغل المترجمون المستشرقون في اللجان العلمية والجمعيات المتخصصة. ونشروا أبحاثهم في شكلها العام والبسيط للتعريف بالشعب المحتل في

مختلف عصوره ومظاهره)[27]. ومما ميزها كذلك إنشاء كراسي لتعليم اللغة العربية في المقاطعات الثلاث الجزائر ووهران وقسنطينة، وكانت هذه الكراسي يشرف عليها أساتذة تخرجوا من المدرسة الاستشراقية الفرنسية، أما المرحلة الثانية فقد وقعت فيها مراجعة شاملة لتجربة التعليم العالي، ومنه التأثير في عملية الاستشراق في الجزائر فقد أنشأت كراسي للغة العامية في باريس وآخر للغة البربرية كما ظهرت في الجزائر مدرسة الآداب والتي تحولت فيما بعد إلى كلية الآداب وتم كذلك انعقاد المؤتمر الدولي الرابع عشر للمستشرقين تحت إشراف رينيه باصيه عميد كلية الآداب وعميد المدرسة الاستشراقية في الجزائر، أما المرحلة الثالثة (فقد تميزت بالتوسع في إنشاء المعاهد المتخصصة كمعهد الدراسات الشرقية، ومعهد الدراسات الصحراوية[28]، ثم معهد الدراسات العربية)[29].كما عرف تحويل المدارس الثلاثة في المدن الرئيسية إلى معاهد ومما ميز هذه الفترة كذلك الحرب العالمية الثانية التي تأثرت من خلالها فرنسا كثيرا، (ومن أبرز المستشرقين في هذه المرحلة هنري بيريز، وليفي بروفنصال، وكانتينو، وروبير برونشفيك.)[30].

المبحث الثالث: شخصيات وانجازات المدرسة الاستشراقية

المطلب الأول: شخصيات المدرسة الاستشراقية

1.**شيربونو**: ولد سنة 1813 بفرنسا، تخرج من مدرسة اللغات الشرقية بباريس وبحث عن عمل فوجد نفسه بالجزائر مدرسا بها، كان كثير التجوال كغيره من أصحابه ممن تخصص بالاستشراق، فنزل بقسنطينة خلفا لمستشرق آخر اسمه برينييه، في هذه الفترة تواصل مع كثير من العائلات القسنطينية أمثال المكي البوطالبي ومصطفى بن جلول، وهذه العلاقات أنتجت تعلم هذه العائلات الفرنسية والتمكن منها، كانت له العديد من الكتابات و المقالات كان ينشرها في المجلة الآسيوية، كان له اهتمام بالغ بتاريخ الجزائر، وقد لاحظت الإدارة الاستعمارية نشاطه فأسندت له إدارة الكوليج الإمبريالي بالعاصمة، كما تولى رئاسة تحرير مجلة المبشر، إلى أن طلب من طرف مدرسة اللغات مدرسة اللغات الشرقية، لكن الوظيفة الجديدة لم تمنعه من مواصلة العلاقة بينه وبين ما أنتجه بالجزائر ، إلى وفاته في ديسمبر 1882 وهو في باريس.

2.**ايميل ماسكري**: ولد بفرنسا سنة 1843، بعد تخرجه بحث عن عمل ولكن حضه ألقى به في الجزائر، فعين مدرسا بليسيه الجزائر، ورغم أنه لم يكن مستشرقا محترفا إلا أن كثرة

حركته وزياراته جعلته يسقل الكثير من مواهبه إلى جانب اعتماد الإدارة الاستعمارية عليه، خاصة في ميدان الترجمة حيث أتقن العربية، ومما اكتسبه كذلك من كثرة تحركاته دراسته للتصوف على يد الأستاذ ابن سماية[31]، اهتم بالبربر كثيرا حتى زار زواوة والأوراس وميزاب، وكانت له مراسلات مع الشيخ اطفيش القطب[32]، بل رد الكثير عمل ماسكري إلى الاستخبار العسكري ونفو عنه كونه مستشرقا صرفا، وزيادة على ذلك فقد كان يعمل على نشر المقالات والكتب التي تخدم التواجد الفرنسي في الجزائر منها نشرة المراسل الإفريقي التي أنشأها وترأس تحريرها، أما عمله الرسمي كما سبق وأن ذكرنا يتمثل في التعليم في مدرسة الآداب ثم عين مديرا لها وبقي كذلك إلى أن توفي سنة 1894.

3.**رينيه باصيه**: هو من مواليد سنة 1855 في فرنسا. وكان يظهر عليه منذ الأيام الأولى اهتمامه باللغات الشرقية، ومنها العربية، وقد شغل منصب التدريس في فرنسا باللغات الشرقية قبل المجيء إلى الجزائر، وعند نزوله بها كان قد اكتمل نضوجه العلمي وعمره في حدود 44سنة،وقد ساعدته منهجيته في الحياة على اكتساب ثقة الكثيرين من العسكريين والمعمرين، لذلك ساعدوه في كثير من الأوقات، فقد جمع بين الاستشراق باحترافية وبين السياسة التي تخدم (وفي سنة 1885 أصبح من الأساتذة المرسمين، ثم تولى منذ 1894 إدارة المدرسة العليا في الجزائر على إثر وفاة إميل ماسكري)[33]

وقد تعدد مواهب باصيه حيث درس العديد من اللغات الشرقية منها العربية الفارسية والتركية وأضاف إليها البربرية عندما حل بالجزائر، فهو إذن من أهم الشخصيات الاستشراقية التي وصلت إلى الجزائر.

وقد كافأته الإدارة الاستعمارية فأوكلت له سنة 1905 برئاسة مؤتمر المستشرقين الدولي الرابع عشر في الجزائر، وظل كذلك إلى وفاته سنة 1924.

المطلب الثاني: انجازات المدرسة الاستشراقية

ف :(في مجال العامية العربية أسهم "وليام ماركيز" بعرضه الخاص باللهجة التلمسانية بشكل لم يسبق له نظير، وبنشر المصادر غير المعروفة حتى الآن حول شمال إفريقية، فقد استحق كل من

ألفريد بيك (1873-1935)، وموريس ديلافو (المتوفى 1926)، وبالأخص أوكتاف هوداس (1860-1917)الشكر)[34] وممن اشتغل بالاستشراق كذلك وبرز فيه بروزا واضحا هو "شربونو" فلندع نفس الكاتب يوضح لنا ذلك :(فقد انتدبت الدولة الفرنسية "شربونو" J.Aug.Cherbnneau (1813-1882) لتنظيم مدارسها في الجزائر، فاهتم بالأمر اهتماما عظيما وعلم في قسطنطينة)[35]، مدة وكان ينشط الطلبة على درس أداب العرب وآثارهم، ونشر مقالات متعددة في شعراء العرب وكتبتهم، (ونقل إلى الفرنسية عدة تآليف قديمة وكان مغرما بتاريخ المغرب والجزائر، وله في ذلك عدة آثارٍ وفي آخر حياته استدعته الحكومة لتدريس العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس)[36]، ومن هؤلاء كذلك "بليته" قال نذير حمدان:(وفي الجزائر أيضا قام " بليته " Peltier.Fr بتدريس الحقوق في كليتها، إلى جانب ما أنتجه من الآثار العربية الإسلامية، فقد ترجم من صحيح البخاري: الوصايا (الجزائر 1909)، وكتاب البيوع والسلم والخيار(1910)، وكتاب البيوت من الموطأ للإمام مالك (1911)... وواضح أن ترجمة مثل هذه الأبواب من صحيح البخاري يقصد به الفقه المقارن وبموازنته بالفقه الروماني والفرنسي، وقد ينتقل الاستاذ أثناء عمله إلى مهمة أخرى لها صلة وثيقة بالتدريس لتحقيق مكاسب استعمارية أكبر حجما وأعظم وزرا)[37]، ثم ينصرف نفس الكاتب إلى ذكر مجموعة أخرى من المستشرقين الذين عملوا في الادارة الاستعمارية فيقول :«ويشبهه ديما Dumas.C الذي عينته الحكومة الفرنسية أحد مفتشيها في مدارس الجزائر. وكثيرون عينوا في مناصب إدارية فنية وتدريسية مثل " درمنغ " مدير مكتبة الجزائر و "بروفنسال" مدير معهد الدراسات العليا المغربية بالرباط)[38]، ومن المناسب كذلك أن ننوه بمجهودات " وليم مارسيه" وفيه قال نفس الكاتب :(وشخصية أخرى أغنى بالمعرفة العربية واللغات الأخرى والعلوم الإسلامية "وليم مارسيه"Mareais.W(1874-1956) حيث كان ينتقل من الجزائر إلى تونس والمغرب ويتردد على علمائها ومدارسها، وحين أصبح أستاذا في الدراسات العليا وبمعهد فرنسا في باريس لم يقطع صلته بتونس، بل طفق يتردد عليها أسابيع كل سنة لإلقاء دروس بالعربية وأصبح مديرا للمدرسة العليا في الجزائر وقد مثل الدراسات العربية والعلوم الإسلامية في مجمع الكتابات والآداب خير تمثيل وكان يقول :" إن القرآن ليس بشعر ولا نثر وأنه فن قائم بذاته، إن المسلمين ينظرون إليه نظرة مقدسة فلا يقلدونه وبقي القرآن خاليا عن التأثير في الأدب العربي)[39]. وفي

الأخير لابد أن نبين أن كل هذه المجهودات كان الغرض منها هو خدمة التنصير والاستعمار على حد سواء وهذا نلمسه في ترجمة (رايموند لول 1235) Raymond Lull م -1316م) الذي ولد في جزيرة ميورقة الإسبانية العربية علي يد عبد عربي، وكانت له جهود كبيرة في إنشاء كراسي لتدريس اللغة العربية في أماكن مختلفة، وكان الهدف من كل هذه الجهود في ذلك العصر وفي العصور التالية هو التنصير)[40] .

وقد تعدد المجالات التي أنتج فيها المستشرقون الفرنسيون في الجزائر حيث تركوا كميات كبيرة من الوثائق والأوراق والكتب في شتى المجالات المعرفية الخاصة بالجزائر، (وفي المجال الديني ظهرت دراسات عن الجهاد. واهتم بروسلار والعقيد دونوفو بالطرق الصوفية فنشر الأول عن تلمسان وحياتها الدينية وآثارها. والثاني عن دور الطرق الصوفية والمرابطين في التاريخ والثورات)[41]، كما يعتبر كتاب منطقة القبائل الكبرى العادات القبائلية التنظيم السياسي والإداري[42] لهانوتو ولوتورنو من أهم الكتب التي تكلمت عن المنطقة وبينت عاداتها وتقاليدها والتنظيمات الواقعة فيها فكان بمثابة كتاب تعريفي بالمنطقة سيما الزوايا والمرابطون والقضاء الاسلامي، كما ذكرت المصادر والمراجع الكم الهائل من الترجمات للكتب الدينية والفقهية والتي تتحدث عن ميدان القضاء وتقوم بمقارنته بالقضاء الفرنسي.

أما في ميدان اللغة كما سبق وأن ذكرنا سالفا (فالتركيز كان على التأليف المدرسي الموجه للأوروبيين الذين كانوا يتعلمون اللغة العربية أو الدارجة. كما صدرت عدة قواميس في هذا النطاق، وقد ذكرنا بعضها (2). كما بدأ الاهتمام باللهجات البربرية في الأوراس وجرجرة وميزاب والهقار. وقد أصدر هانوتو معجمه عن لهجة جرجرة (زواوة)، وذكر دوفيريه نماذج من لهجة الهقار وغيره من المناطق الصحراوية. وأورد نماذج من الخطوط والكتابات)[43] .

وبالمجموع فإن المستشرقين كرسوا جهودهم لاستخراج التراث الجزائري حتى يخدم الاستعمار، فقد كان الأدات التي استعملتها السلطة لخدمة مخططاته، حيث نجد الكثير من الدراسات الاجتماعية والإثنية (السلالية) والطوبوغرافية للمدن والمناطق والعلاقات الاجتماعية كالزواج والطلاق وتعدد الزوجات، وعدد الأولاد وتسمياتهم.

خاتمة:

إن الكلام عن الاستشراق يحتاج إلى مساحات كثيرة وإلى دراسات جادة لأن أغلب ما يعيشه المجتمع الجزائري اليوم ما هو إلا نتاج تلك المدرسة التي اعتمدت على إيديولوجية استعمارية فهي ضد كل ما هو وطني وضد كل ما هو عربي إسلامي، وقد تشكل إثر ذلك انقسامات خطيرة في الهيكلة الاجتماعية في الجزائر، وكذلك الحملات التنصيرية التي ما نزال لحد اليوم نتجرع العلقم من جراءها، فكل الأماكن التي تركز البحث فيها كمنطقة القبائل والصحراء تضررت من هذا الداء، ولكن نقول ما يزال بإمكان النخبة الجزائرية التصدي لهذا المرض من خلال إعادة بعث النشاط التعليمي الذي قامت به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حيث كان من بين المساهمين للحد من الحركة في الفترة الثالثة لها أي بعد سنة 1930 وهذا مهم جدا لمن أمعن النظر فيه.

الهوامش :

[1]أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، ط 1479،1399، تح عبد السلام هارون ، ج2 ص 268/267.

[2]محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، دار ابن كثير، ط الثالثة(1998،1418)، ص203.

[3]بن منظور، لسان العرب، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، د ت، ج 7، ص 382،381.

[4]الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، 2011/1432، ص 584.

[5]محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، دار ابن كثير، ط الثالثة(1998،1318)، ص336

[6]بن منظور، لسان العرب، من إصدارات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، د ت، ج12،ص 40

[7] الاحمرار هو كتاب للحسن بن زين الشنقيطي وهو عبارة عن زيادات على لامية الأفعال لابن مالك رحمه الله

[8]حسن بن زين الشنقيطي، الطرة شرح لامية الأفعال لابن مالك، تحرير وتنسيق عبد الرؤوف حسين علي، ط الأولى 1997،1417، ص 68.

[9]يقصد بالمصادر الاسلامية : "القرآن والسنة وكل علم مساعد لدراستهما من لغة وأصول فقه وأصول حديث وسيرة وقواعد فقهية ...إلخ "

[10] محمد إبراهيم الفيومي ،الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي ،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف مصر العربية ، ص 12.

[11] عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني ، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير ، الاستشراق ، الاستعمار)،دار القلم ، دمشق ، ط الثامنة ،1420هـ ـ 2000م ، ص53.

[12] فاروق عمر فوزي ، الاستشراق والتاريخ الإسلامي القرون الاسلامية الأولى، الأهلية للنشر والتوزيع ، المملكة الأردنية الهاشمية لبنان ، ط: الأولى ، سنة 1998م ، ص 30.

[13] علي بن إبراهيم النملة ، الاستشراق في الأدبيات العربية ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط: الأولى ، سنة 1414هـ ـ 1993م ، ص 13 .

[14] عبد الرحمن عميرة ،الإسلام والمسلمون بين أحقاد التبشير وضلال الاستشراق ، دار الجيل ، بيروت ، ص90.

[15] المصدر سابق ، ص90.

[16] علي بن إبراهيم النملة ، الاستشراق والدراسات الإسلامية ، مكتبة التوبة ، الرياض ، ط: الأولى ، 1418هـ ـ 1998م ، ص 124

[17] أحمد عبد الرحيم السايح ، الاستشراق في ميزان نقد الفكر الإسلامي ، مصدر سابق، ص 10.

[18] عبد الله محمد الأمين النعيم ، الاستشراق في السيرة النبوية ، ط: المعهد العالي للفكر الإسلامي ، ط : الأولى ، سنة 1997م ، ص17.

[19] علي بن إبراهيم النملة ، الاستشراق في الأدبيات العربية، مصدر سابق، ص 13 .

[20] خالد إبراهيم المحجوبي ، الاستشراق والإسلام ، أكاديمية الفكر الجماهيري ، ليبيا ، ط : 2010م ، ص 16.

[21] مصطفى السباعي ، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم ، دار الوراق للنشر والتوزيع ـ المكتب الإسلامي ، ص 19.

[22] الدكتور محمود حمدي زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري ، دار المعارف ، ص 41.

[23] محمد عبد الله الشرقاوي ، في الفكر الإسلامي المعاصر الاستشراق دراسة تحليلية تقويمية، مصدر سابق، ص 75.

[24] يوهان فوك ، تاريخ حركة الاستشراق ، دار المدار الإسلامي ، ترجمة : عمر لطفي العالم ، ط: الثانية ، سنة 2001 ، ص 262.

[25] نذير حمدان ، مستشرقون سياسيون ـجامعيون ـمجمعيون ، مكتبة الصديق للنشر والتوزيع ، السعودية ، ط: الأولى ، سنة 1408هـ ـ1988م ، ص 81.

[26] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط الأولى 1998، ج6ص12.

[27] المصدر السابق، ج6ص13.

[28] مركز أسس بمدينة غرداية يهتم بالثقافة العربية الإسلامية، تحول بعد الاستقلال إلى متحف

[29] المصدر السابق، ج6ص14.

[30] المصدر السابق، ج6ص14.

[31] هو عبد الحليم بن علي بن سماية من أعيان مدينة الجزائر من أسرة مشهورة بالعلم والتدين ولد عبد الحليم بن سماية بالجزائر العاصمة العاصمة في 15 جويلية 1866م ، زار بلاد الشام وأدى فريضة الحج إلى بيت الله الحرام وانتقل إلى تونس للدراسة وتحصل فيها على إجازة من العالم الجزائري المهاجر محمد بن عيسى الجزائري ، كان بن سماية من أبرز المستقبلين والمرافقين للشيخ محمد عبده عندما زار الجزائر ، شارك في مؤتمر المستشرقين الرابع عشر بالجزائر سنة 1905م،وألقى بحثا عن وضع الإسلام، توفي سنة 1933م.(انظر : أبو عمران الشيخ =وفريق من الأساتذة / معجم مشاهير المغاربة / منشورات دحلب / ط2007/ ص245)

[32] محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح أطفيش(1820-1914) من أكابر العلماء بالفقه والأدب واللغة والتفسير، ولد في بني يسقن وبها نشأ وتعلم، سافر إلى الديار المقدسة مرتين وكان يؤلف وهو في السفينة، عكف على التدريس والتصنيف والوعظ والإرشاد إلى أن وافاه الأجل وعمره ستة وتسعون عاما، من كتبه : هيمان الزاد ليوم المعاد في التفسير، داعي العمل ليوم الأمل فسر فيه القرآن من سورة الرحمن إلى سورة الناس، وشرح عقيدة العزابة لابن جميع، وشرح النيل في الفقه. (عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مصدر سابق، ص19-20).

[33]المصدر السابق، ج6ص

[34] يوهان فوك ، تاريخ حركة الاستشراق ، مصدر سابق ، ص 262.

[35]هكذا في الأصل والصواب : "قسنطينة "

[36]نذير حمدان ، مستشرقون سياسيون ـجامعيون ـمجمعيون ، مصدر سابق، ص 80.

[37]المصدر سابق ، ص 80 - 81.

[38]المصدر سابق، ص 81.

[39]المصدر سابق، ص 83.

[40] الدكتور محمود حمدي زقزوق ، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مصدر سابق، ص 29.

[41]أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مصدر سابق، ج6ص

[42] وقد ترجم الكتاب للعربية من طرف الأستاذ مزيان الحاج أحمد قاسم وطبع في مطبعة كرجا بتيزي وزو سنة 2013

[43]أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مصدر سابق، ج6ص